الجزء الثالث — المجلد الثامن والأربعون

مجلة

مجمع اللغة العربية بدمشق

« مجلة المجمع العلمي العربي سابقاً »

جمادى الآخرة سنة ١٣٩٣ هـ — تموز « يوليو » سنة ١٩٧٣ م

العلم والشعر يلتقيان

الأستاذ شفيق جبري

لمّا انحدر رجال الفضاء من الأفق الأعلى إلى الأفق الأدنى ، من السماء إلى الأرض ، وملأت أنباؤهم أرجاء العالم، وشغلت رحلتهم عقول البشر، كثرت في بعض المجالس هذه السؤالات : ماهي قيمة الشعر إلى جنب قيمة العلم ، ماذا يستطيع الشعراء أن يعملوا إلى جنب مايعمله العلماء من أعمال تفوق كل تصور!

لاشك في أن الإنسان يصيبه لأول وهلةٍ ما يشبه الذهول بعد سؤالات من هذا الشكل ، حتى يكاد يفقد كلّ إيمان بالشعر وكلّ ثقة بالشعراء ، إلاّ أن هذا الذهول لايلبث أثره أن يذهب بعد قليل من صحو العقل واستفاقة الذهن ، لايلبث الرجل بعد سؤالات من هذا النوع أن يرجع إلى صحة التميز فيعرف للشعر قيمته دون أن ينكر ماللعلم من قيمة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من أقوال « باستور » : في كل واحدٍ منّا رجلان: الرجل العالم الذي طرح ناحيةً ما ورثه من الأفكار ولجأ إلى العيان والتجربة والتفكير حتى يرتفع إلى معرفة الطبيعة ؛ والرجل صاحب الحسّ ، رجل التقليد، رجل الإيمان والشك، رجل العاطفة، الرجل الذي يبكي من فقده ولده وهو لا يستطيع، ويالأسف، أن يقيم البرهان على أنه سيراه مرّة ثانية ، ولكنه يعتقد هذه الرؤية أو يأملها ، الرجل الذي لا يريد أن يموت كما تموت الجرثومة .

هذان عالمان مختلفان ، ويابؤس للذي يريد منهما أن يعتدي على الآخر !

إذا جاز لنا أن نتصرف في أقوال « باستور » قلنا إن العالم لا يستغني عن هذين الرجلين ، رجل العقل وهو العالم ، ورجل العاطفة وهو الشاعر ، فالعالم يدأب بياض الصبح وسواد الليل في الاهتداء إلى الحقيقة المجهولة ، والشاعر يلقي ضياءً من قلبه على ما يحيط بالبشر من عالمٍ ملآن من الآلام حتّى يخفف من مصائبه وحتّى يحوّل جهنّمه إلى جنّات عَدْن .

لاشك في أن البشرية لا تستغني عن العلماء الذين نقدّسهم تقديساً لا غاية بعده ، إن لهم أهدافاً سامية يسعون إليها ، فهم يخلصون المحبّة لعلمهم فيعملون في مخابرهم وقد تسوء صحّتهم من عملهم ، ومع ذلك فإن عقولهم لا تنفكّ تمتدّ إلى المعجزات، إنهم يبحثون عمّا يضيء عقول البشر وعمّا يشفي الناس من عللهم دون الالتفات إلى الآلام التي تأكل أجسامهم ببطء ، فكم من عالم قضى في سبيل بحثه وتنقيبه ، إما بسبب إشعاعات تعمي ، وإما بسبب جراثيم تقتل ، وإما بأسباب ثانيةٍ تتصل بالكشف عن أسرار الطبيعة ، وإذا كانت صناعتهم قاسية في حين وقتّالة في حين آخر ، فإنها على كل حالٍ صناعة جذّابة !

فإذا كنّا نحني الرؤوس إجلالاً للعلماء الذين يخدمون البشر بعقولهم الراجحة أفما ينبغي لنا أن نملأ القلوب من محبة الشعراء الذين يخففون من ويلات النفوس بخيالاتهم اللطيفة ؟

إنا نعتقد أن نفوس البشر تحتاج إلى العواطف احتياج الأجسام إلى الحرارة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فالرجل الذي لاتملأ العواطف قلبه ولا تدفئه حرارتها يعيش عيشة يزدحم عليها الحزن والكآبة ، فهو عاجز عن أن يقوم بأي عمل عظيم أو بأي عمل صالح ، فمن الواجب علينا أن نحتفظ بهذه النار المتأججة ، نار العواطف وأن نتعهدها فإنها محور حياتنا الأدبية . كلُّ الأدب على مانظن قائم على تصوير قلب الرجل أي على دراسة عواطفه وأهوائه ، وعلى ما تفضي إليه هذه الدراسة من العواقب ، ونعتقد أن الشعراء أقدر الناس على مثل هذه الدراسة . ماذا فعل « شكسبير » في شعره ؟ إنه اجتاز في رأي « موروا » أزمة تقرب بعض الشيء من أزمتنا ، فصرخ صرخات فيها الغضب والاشمئزاز وهي أرعب صرخاتٍ نجدها في تاريخ الأدب ، فلا يستطيع أحد أن يعرف مظاهر الحياة ومظاهر الأهواء على نحو ما عرفها « شكسبير » لأنه عاش وأحسّ بالألم ، لقد ذاق أمرَّ العذاب والألم ثم نجا من عذابه وألمه في آخر حياته بعزلته في الأرياف بين الحقول والطيور والفلاحين حيث وجد وحدة الحياة السعيدة بين ظهراني أهله ، وهنا جاءته الرؤيا الإلهية ، فكانت هذه الرؤيا حلًا لكل مشكلاته ، ولم يك حلًا مجرداً ، ولم يك فلسفة ذات شكل معيّن ، ولكنه كان رؤيا ، لأن الشعر وحده هو الذي يحلّ مشكلات العقل .

لاندري كيف تكون الحياة لولا الشعر ، أفلا تملأ الكآبة حينئذٍ كلّ جانب من جوانبها ؟ وإذا جرّدت الحياة من سلطان الشعر ، أفلا يتعطل جزء كبير من نفوسنا ؟ أفلا تنام ملكة الحسّ في أعماق قلبٍ قاسٍ مقفرٍ ؟ أفلا تحرم نفوسنا نصيبها من لذة الألوان والأصوات ؟ فلو لم يكشف لنا الشاعر عمّا يستر الطبيعة من مختلف الحجب لما نعمت أعيننا بصور هذه الطبيعة ولما أخذت آذاننا نصيبها من أصواتها وألحانها .

لاندري كيف تكون لغتنا وأفكارنا لو لم يزيّن الشعراء هذه اللغة وهذه الأفكار بسحر صورهم وفتنة خيالاتهم ، إن لغة العاطفة لاتبتلّ إلا بأنفاسهم ؛ ولاتندى إلا بابتساماتهم ، فنحن لانحب إلا إذا ازدحمت على عواطفنا ألحان الشعراء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتصاويرهم ، فقدّست هذه العواطف وعظّمتها ، فلو كانت الحياة متوقفة على العقل وحده في هذا العالم، لو كانت الحياة مجردة من العواطف ولغتها لانتهت آجالها من زمنٍ بعيد ، فالشعراء على نحو ما قال أناتول فرانس « هم الذين يلقون الضياء ، في الوقت الذي يلقون فيه الكلام ، على أفراحنا المبهمة وعلى آلامنا الغامضة، فهم الذين يقولون لنا مانشعر به شعوراً ملتبساً، إنهم أصوات نفوسنا، بوساطتهم ندرك الإدراك كلّه مسراتنا ومضاجرنا »

لاندري كيف نشعر بمحاسن الطبيعة لو لم يحملنا الشعراء على إدراك هذه المحاسن ، ماأعظم الفرق بين نظرة العالم إلى الطبيعة وبين نظرة الشاعر إليها ، يجبس عالم من علماء النبات نفسه على دراسة نوع من هذا النبات فيبحث عن غذائه وتنفسه ونموّه وما شابه ذلك بحثاً علمياً مجرداً من الصور والألوان والألحان ، أما الشاعر فإنه يرى في النبات مالايراه العالم ، ماذا رأى البحتري في الطبيعة ؟ لقد تغنى بكل منظر من مناظرها ، تغنى بالربيع وهو ينمنم وشي حلّتها الخضراء ، وبالخريف وهو ينسج لها حليتها الصفراء ، واستوفت عينه حظّها من رباها ، وقد صبغها الليل بلونه الأسود ، ومن آفاقها ، وقد اختضبت بالصباح الورد ، وتملّت أذنه قسمها من هديل حمامها وحفيف ورقها وضجيج بحرها وزجل رعدها ، وأخذ أنفه نصيبه من نرجسها ووردها وآسها وزعفرانها وأقحوانها ، ولقد ملأ نفسه من كل جزءٍ من أجزاء الطبيعة ، من ذهب شمسها وفضّة مائها واندفاق غيثها في غداةٍ مخضّلة أو عشيّ مبتل .

لقد نظر رجل العلم إلى كل ما نظر إليه البحتري أو غيره من الشعراء ، إلا أن العالم لم يهتم في الطبيعة في مجامع مظاهرها إلا بالقوانين التي يهتدي بها إلى معرفة خصائصها وأسرارها ، متوخياً في هذا كله الوصول إلى الحقيقة التي تكشف عن هذه الخصائص والأسرار ، أمّا الشاعر فإنه يرى من وراء هذه الحقيقة عالماً ملآن من الجمال، يرى من ورائها مايسُر به حسّه وذوقه وشعوره ، فالبحتري نظر إلى الأقحوان كما نظر إليه عالم النبات، ولكنه لايرى ضحك الأقاحي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في الصباح إلا رأى من وراء هـــذا الضحك رضاباً بارداً ، والبحتري نظر إلى الشمس كما نظر إليها عالم الفلك ولكنه لايرى جنوح الشمس للأصيل إلا رأى في أضعافه جنوح حبيبته لوشك بعدٍ أو فراق.. وهكذا فإن الشاعر ينظر إلى الطبيعة من زاوية تختلف عن زاوية العالم ، إنّ رجل العلم يهمه من هذه الطبيعة الكشف عن حقيقتها أمّا الشاعر فالذي يهمه منها إنما هو الكشف عن جمالها وحسنها ، فالطبيعة تشتمل في نظر العالم على صور ترضي عقله ، ترضي بحثـــه وتنقيبه ، أما الشاعر فإن الطبيعة تشتمل في نظره على صور ترضي عينه وأنفه وأذنه ، فلا يجد معنى لتنفس الروض في جنح باردٍ من الليل إلا إذا ذكره هـذا التنفس أنفاسَ حبيبته ، ولايجد معنى لترقرق الندى فوق الشقائق إلا إذا ذكره هذا الندى دموع التصابي في خدود الأحباب ، ولا يجد معنى للمعان البرق إلا إذا ذكره هذا اللمعان ابتسامة من الابتسامات .

فإذا كان العالم يبحث في الطبيعة عن الحقيقة وإذا كان الشاعر يبحث فيها عن الجمال ، فإن البشرية في حياتها محتاجة إلى هذين النوعين من البحث ، فلاغنى لها عن الحقيقة كما لاغنى لها عن الجمال .

على أن العالم الذي ينقّب عن الحقيقة لامندوحة له في تنقيبـه عن بعض ما يحتاج إليه الشاعر ، لقد قال أحد الكتّاب في « باستور » إنه رزق من صفة المبتدع النصيب الأوفى وهو الخيال ، فلم يقف به هذا الخيال عند منتهى تنقيبه وبحثه ولكنه رمى به إلى أبعد من ذلك ، حتى كشف آفاقاً جديدة وتنبأ بالمستقبل وشعر بحقائق هذا المستقبل قبل غيره ، فكان فكره شبه شعاع المنارة الذي يضيء الطريق لمن يجيء بعده .

هذا الرجل رجل المخابر ، رجل التجارب ، إنه متنبىء إنه شاعر !

ولسنا نعتقد أن الذين انصرفوا إلى الكشف عن أسرار الفضاء في السنين الأخيرة يقنعون بما وصلوا إليه من المعرفة ، إن خيالهـــم المبتدع يشبه خيال الشعراء ، فهو سيدفعهم بعد اليوم إلى هذا السؤال : ماذا بعد الفضاء ، ماذا بعد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

القمر ؟ ماذا بعد الكواكب كلّها ؟ فإن عقل البشر الذي يخضع لقوة لا سبيل إلى التغلب عليها لا ينفك يسأل هذا السؤال : ماذا وراء هذا كله ؟ فالخيال يدفعه إلى الكشف والابتداع، فإن العقل لا يريد أن يقف عند حدٍّ من حدود الفضاء والزمن ، لأن هذا الوقوف لا يشفي غليل العالم فلا شيء يستطيع أن يسكت صوت تطلع العلماء .

نظن بعد هذا كله أن الشعر لا يحتاج إلى إقامة الدليل على قيمته في الحياة على الرغم من قيمة العلم السامية ، ومهما نقل في الشعر فلا نستطيع أن نوفيه حقّه أكثر ممّا وفّاه بعض أدباء الإنكليز في قوله :

« حقاً إن الشعر إنما هو شيء إلهي ، إنه في وقت واحد دائرة معارفنا ومركزها، إنه الشيء الذي يشمل العلوم كلها والذي ينبغي لكل علمٍ أن يرجع إليه ، إنه في وقت واحد ينبوع كل مقاييس الفكر وزهرة هذه المقاييس كلها ، إنه مصدر كل شيء وزينة كل شيء .

كيف تكون الفضيلة والحب والوطنية والصداقة ؟ كيف تكون زينة هذا العالم الجميل الذي نسكنه ؟ كيف يكون عزاؤنا على جوانب القبور ؟ كيف تكون آمالنا وراء هذه القبور؟ كيف يكون هذا كلّه لو لم يأت الشعر فيجلب لنا الضياء واللهيب من تلك العوالم الخالدة التي لا تجرؤ قوانا على أن تطير إلى آفاقها بأجنحتها ؟ ! » .

هل بنا حاجة بعد هذا كلّه إلى أن نقول : ما قيمة الشعر إلى جنب قيمة العلم ؟ أفلم نر أنّ العلماء يحتاجون في ابتداعهم إلى الخيال ؟ فهل من مبالغة في القول إذا قلنا إنّ العلم والشعر يلتقيان ؟! .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net